بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 29 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:28\12\2021 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

وصل الكلام إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ في عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصير﴾[1] صدق الله العلي العظيم

هذه الآية الشريفة وما بعدها، والآية التي بعدها، هي وصية من الله سبحانه وتعالى في تنظيم العلاقة بين الأبناء والوالدين، وهناك محطات من البحث ينبغي أن نقف عندها:

المحطة الأولى: نظير هذه الآية تكرر في القرآن الكريم، جاء في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُون﴾[2] هذه آية مشابهة لهذه الآية في سورة لقمان وللآية التي بعدها، لكن على وجه مختصر. كذلك في سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لي في ذُرِّيَّتي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمين﴾[3]

والملفت للنظر سواء في النصوص القرآنية أم في الروايات الشريفة التأكيد على توصية الولد بالوالدين دون العكس، إلا في بعض الموارد التي لها خصوصية، في الروايات التي تنهى عن الوأد، وما شابه ذلك. ما هو وجهه هذا التأكيد وقرن إطاعة الوالدين بإطاعة الله سبحانه وتعالى؟ عموماً الشيء الذي يحتاج إلى تأكيد هو ذلك الشيء الذي لا يكون على وفق ميل الإنسان وطبعه، أما الذي يكون على وفق ميلنا وطبعنا لا يحتاج إلى تأكيد، إنك وصيت به أم لم توص به، هذا الشيء على وفق الميل والطبع، فالإنسان يعمله. أما الذي إلى توصية وإلى تأكيد وإلى اهتمام، هي تلك الأمور التي تكون

---

[1] لقمان 14
[2] العنكبوت 8
[3] الأحقاف 15

على خلاف طبع الإنسان وميله. ونلاحظ أن عطف الأبوين على الأبناء وعلى وفق الطبع والميل، هذه العاطفة التي للأبوين تجاه الأولاد، هي عاطفة فطرية، هي عاطفة داخلة في جبلة الأبوين، خصوصاً الأم، فلا تكون بحاجة إلى تأكيد على محبتها وعطفها على أولادها؛ لأنها وفق الطبع وعلى وفق الميل البشري. خصوصاً هذا التدرج عند الولد، من مخلوق لا حول له ولا قوة إلى أن يتدرج يبدأ بالحبو ثم المشي في حركات لطيفة، هي في حد ذاتها تجذب الإنسان الغريب، فضلاً عن الأب والأم، بينما في طرف الأب والأم كلما يزداد نمو الطفل ووعيه وكبره كلما يحصل تدني في العلاقة مع الأبوين، يصبحان في حالة من الكبر، في حالة من الضعف، في حالة يحتاجان فيها إلى عناية، ويكون الولد قد بدأ بتأسيس مشروعه الخاص وأسرته الخاصة، فيقتضي ذلك أن يعرض عن الاهتمام بهما، فجاءت الآيات والروايات لتؤكد على هذه العلاقة. هذا هو الوجه في التأكيد على ذلك في عدة آيات.

المحطة الثانية: ترتبط بأن هذه الآية الشريفة، هل هي من مواعظ لقمان لابنه أم هي أجنبية عن ذلك؟ لأنك كما تقدم معك، عرفنا أن المقطع الجديد بدأ بقوله: ﴿وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ مواعظ لقمان قد بدأت ﴿يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ثم مباشرة قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسان ...﴾ وبعد هاتين الآيتين يأتي قوله: ﴿يا بُنَيَ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ يرجع إلى مواعظ لقمان لابنه.

فقد يقال مقتضى السياق أن تكون الوصية بالأبوين من ضمن مواعظ لقمان، لكنك تعرف أنه في قاعدة السياق يؤخذ بها ما لم تكن قرينة على الخلاف، ولذا مثلاً في الآية الثالثة والثلاثين سورة الأحزاب ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا﴾[4] مقتضى وقوعها في سياق الحديث عن نساء النبي صلى الله عليه وآله أن نقول بأن المقصود من أهل البيت هم نساء النبي صلى الله عليه وآله لولا أن قامت قرينه على مخالفة السياق، وهي تذكير الضمير، طبعاً هذه القرينة الداخلية، وإلا القرائن الخارجية كثيرة، لأنه ﴿وَ قَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِينَ الزَّكاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَه﴾ كلها بنون النسوة، مباشرة جاء بآية فيها تذكير للضمير، فهذه قرينة على مخالفة السياق لغاية، قرينة على كون الجملة جملة اعتراضية تأتي لغاية.

---

[4] الأحزاب 33

ما نحن فيه من هذا القبيل، حيث إن المتكلم بهذه الآية وما بعدها صار هو الذات المقدسة للباري تبارك وتعالى، بينما في الآية التي قبلها وما يأتي بعد هاتين الآيتين، ينقل القرآن وصية لقمان لابنه، وموعظة لقمان لابنه، فعندما جاء مباشرة الله سبحانه وتعالى ولم تأت -مثلاً- وقال لقمان أن الله سبحانه وتعالى قال ووصينا الإنسان بوالديه. عرفنا أن هذه الجملة جاءت اعتراض -جملة اعتراضية- لغرض ولهدفه، فما هو وجه كون هذا الاعتراض قد وقع بين مواعظ لقمان عليه السلام؟ مسلم بين علماء التفسير أن هاتين الآيتين -هذه الآية وما بعدها- ليست من مواعظ لقمان، وإنما هي جملة اعتراضية.

فإذن بقرينة كون المتكلم هو الله سبحانه وتعالى بهاتين الآيتين، خرجنا عن السياق، إنما الكلام في مناسبة إقحام هذا الاعتراض بين مواعظ لقمان، يمكن أن يرجع ذلك إلى أحد أمور:

الأمر الأول: أنه في الآية الأسبق، قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ بينا هناك أن هذا الشكر هو مقتضى كون الباري سبحانه وتعالى هو الخالق والمنعم، وأن الشكر من المقتضيات الضرورية لحالة الإنعام، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يؤيد ما في الكلام المتقدم، فجاء بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ في عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصير﴾ فتأكيد لحالة الشكر، مع بيان وجه النعمة.

الأمر الثاني: أن الوصية الأولى للقمان الحكيم في الآية السابقة، هي النهي عن الشرك، هذا النهي الشرك من جهة قد يقال له مشابه -الشرك له مشابه- وقد يقال بأنه هل له مخصص؟

أم له مشابه؛ باعتبار أن الإنسان كما يطيع الباري تبارك وتعالى يطيع والديه، فقد يتوهم أحد أن هذا النوع من أنواع الشرك.

أما أنه ليس له استثناء، فللآية التي بعدها، قالت: ﴿وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ لتدل على أن النهي عن الشرك ليس له استثناء، حتى من أرباب النعم الذين يأتون في المرتبة الثانية بعد الخالق بحسب الظاهر.

فبناء على ذلك يكون هناك ارتباط وثيق بين الوصية الأولى للقمان وبين هاتين الآيتين، أولاً إطاعة الوالدين هو عين التوحيد؛ لأنه بأمر من الله سبحانه وتعالى، وثانياً لا تطعهما في مسألة الشرك، فحرمة الشرك والنهي عن الشرك ليس له أي استثناء.

الأمر الثالث: إقحام العلاقة بين الولد ووالديه في تصوير جميل لهذه العلاقة كما سوف يأتي، يؤكد حينئذ على أن وصية لقمان لابنه هي وصية خالصة عن المنفعة الشخصية، وإنما هي ناشئة من شفقة الأب على ابنه، فجاءت هذه الآية لتصور هذه العلاقة وتبين أن مقتضى هذه العلاقة أن الوالدين لو وعظا يكون وعظهما خالصاً لنفع الأولاد.

المحطة الثالثة: ترتبط بقوله تبارك وتعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ في عامَيْنِ﴾ هذا المقطع من الآية يرسم لنا صورة جميلة لهذا البذل النبيل الذي يقدمه الوالدان، خصوصاً الأم، الوصية جاءت بالوالدين، ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوالِدَيْهِ﴾ بالأب والأم، لكن في مقام التفصيل والتصوير، جاء بحالة ترتبط بالأم ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ﴾ أي ضعفاً على ضعف، وهناً إعرابها بحسب الظاهر أنها حال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ في عامَيْنِ﴾ أي مولود هذه الأم يكون فطمه ومنعه عن التغذية في عامين، يعني ترضع الأم وليدها مدة عامين ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾[5] وفي سورة الأحقاف ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾[6] الفصال بحسب آية الرضاعة وبحسب هذه الآية، عبارة عن أربعة وعشرين شهراً، فيكون الآية في سورة الأحقاف ناظرة إلى أقل الحمل، وهي ستة أشهر.

فإذن هذا المقطع دلالته التصويرية واضحة، أن هذه الوصية ليست وصية اعتباطية وعشوائية، بل ناشئة من عملية التفاعل بين صاحب النعمة وبين المنعم عليه، وصاحب النعمة تحمل المشاق الكبيرة في إيصال هذه النعمة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ﴾ فتكون هذه الوصية مبررة، وفي غاية الموضوعية.

غفر الله لنا ولوالدينا وللمؤمنين والمؤمنات.

---

[5] البقرة 233
[6] الأحقاف 15